المتنبي فى مجلس سيف الدولة

رواية تمثيلية ذات فصل واحد

بقلم ابراهيم أنيس
عضو البعثة العلمية بانجلترا

«سيف الدولة يلعب الشطرنج مع ابن خالويه ، وبجوارهما أبو الحسن الراوية ،

سيف الدولة ، مقهقهاً ، : عليك أن تحمى مليكك يابن خالويه .

— بذا قضت الأيام مابين أهلها : مصائب قوم عند قوم فوائد

ابن خالويه : أعز الله مولاى الأمير ، والله إن فرسك فى صيالها فوق لوح الشطرنج . لهى فرسك فى ميدان القتال

وما الخيل إلا كالصديق : قليلة وإن كثرت فى عين من لايجرب

أبو الحسن : إن مليكك ومليكى فى أمن من الخوف ، وما هذه الأليعبات إلا خشب مسندة

فرب غلام علم المجد نفسه كتعليم سيف الدولة الدولة الضربا

إذا الدولة استكفت به فى ملمة كفاها ، فكان السيف والكف والقلبا

ابن خالويه : نطقت صواباً ولكن أتعرف لم لم تنصب كلمة ، خُشُب ، فى قولك ، ماهى إلا خشب مسندة ، ؟

سيف الدولة : يا بن خالويه عرفناك نحوياً ضليعاً فدع أبا الحسن وحاله إنه وإن لم يدر من النحو ماوعيت ، لهو بالكتابة والرواية جد عليم

عليم بأسرار الديانات واللغا له خطرات تفضح الناس والكتبا

أبو الحسن : أدام الله حياة الأمير ، لقد تعودت مثل هذا القول من ابن خالويه وغيره ، ولكنه الزمن أيها الأمير :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال

ابن خالويه : قاتلك الله . لقد أعدت إلى سمعى ذكر «حتي» ، رحم الله

سيبويه حين قال « سأموت وفى نفسى شىء من حتى »

سيف الدولة « بعدلعبة مدهشة من ابن خالويه » : لعنك الله ! ضيقت على الحصار ، فلا أرى مخرجاً

أظمتنى الدنيا ، فلما جئتها مستسقياً ، مطرت على مصائباً

ابن خالويه : ألا ليت شعرى .

أبو الحسن « مكملا »

هل أقول قصيدة فلا أشتكى فيها ولا أتعتب

وبى ما يذود الشعر عنى أقله ولكن قلبى يابنة القوم قلب

سيف الدولة : والله لكأنى لم أسمع هذا الشعر من قبل ، لمن هذا ؟ وفيمن قيل ؟

ابن خالويه : كيف يكون فى ممدوح غير سيف الدولة

أنت الذى لهج الزمان بذكره وتزينت بحديثه الأسمار

وإذا تنكر فالفناء عقابه وإذا عفا فعطاؤه الأعمار

أبو الحسن : إنه المتنبى يمدح الأمير ، وهو القائل فيك .

من للسيوف بأن تكون سميه فى أصله وفرنده ووفائه

سيف الدولة : ألم يكن هذا فى القصيدة التى أجاز بها أبياتك ؟ فماذا كان مطلعها ؟

أبو الحسن : مطلعها ـ أعز الله الأمير :

يا لائمى كف الملام عن الذى أضناه طول سقامه وشقائه

ابن خالويه : ردىء ! وإنه لو قال أضناه سهاده لكان خيرا .

سيف الدولة : أحسنت يابن خالويه فى نقدك للمرة الأولى .

ونذمهم وبهم عرفنا فضله وبضدها تتميز الأشياء

أبو الحسن : ما زلت أعتز بأبياتى هذه حتى أجازها المتنبى بقوله :

عذل العواذل حول قلب التائه وهوى الأحبة منه فى سوداء

فأصغر من شعرى هذا القول .

ابن خالويه « ساخراً » : لم لا نلقبك راوية المتنبى ؟ إنى أراك تسرف فى

الثناء عليه وهو لم يأت بجديد ، رحم الله عنترة حين قال :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ »

سيف الدولة : يابن خالويه ، كن عادلا في حكمك ، وحاول أن تفهم الشعر من طريق غير طريق النحو .

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟

أبو الحسن :

مضت الدهور وما أتين بمثله ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

ابن خالويه : إنك لتزيده بمثل هذا القول غروراً ، وهو القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فليت شعري ماذا أبقى للأمير ا وصف نفسه بالرياسة والسماحة والفصاحة ، يمدح نفسه بما يسرق من كلام غيره ، ويأخذ جوائز الأمير .

سيف الدولة : إنه شغل عني بالمديح في نفسه ، ولقد كتبت له بهذا وتنكرت له بعض الشيء .

وإني لنجم تهتدي بي صحبتي إذا حال من دون النجوم سحاب

وللسر مني موضع لا يناله نديم ، ولا يفضي إليه شراب

« ثم يشرب الكأس »

أبو الحسن : لعل الأمير يذكر اعتذاره عن هذا بقوله :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل الكلام اختصارا

تركتني اليوم في خجلة أموت مراراً وأحيا مراراً

ابن خالويه : لاحول ولا قوة إلا بالله ، والله إن الشعراء ليتبعهم الغاوون كيف يموت مرار ويحيا مرارا ؟ والله إن الموت لموتة واحدة .

سيف الدولة « مقهقها » : يابن خالويه ، رفه عنك . فما الشعر إلا خيال يلذ به السامع ، كما يلذ الشارب بالخمر :

« يا ساقي ، علي بالصهباء »

أبو الحسن :

لأحبتي أن يملئوا بالصافيات الأكوبا
وعليهمُ أن يبذلوا وعلى ألا أشربا

ابن خالويه : والله إن المجلس بغير الشراب ، لكالكلام بلا إعراب .

سيف الدولة : لقد كتبت إلى المتنبي أستدعيه .

« يدخل المتنبي منشدا »

فهمت الكتاب أبر الكتب فسمعاً لأمر أمير العرب
وطوعا له وابتهاجاً به وإن قصر الفعل عما وجب
وما عاقني غير خوف الوشا ة، إن الوشايات طرق الكذب

السلام على مولاى الأمير ومن بحضرته :

سيف الدولة : وعليكم السلام . اجلس يا أبا الطيب .

أبو الحسن : كيف رأيت خلعة الأمير يا أبا الطيب ؟

المتنبي :

فعلت بنا فعل السحاب بأرضه خلع الأمير وحقه لم نقضه
فكأن صحة نسجها من لفظه وكأن حسن نقائها من عرضه

ابن خالويه : لست أستسيغ قولك : « فعلت بنا »

سيف الدولة « مقهقهاً » : لعنك الله يا بن خالويه .

ابن خالويه : إن هذا القول فى رداءته يذكرنى بقصيدتك التى قلت فيها :

ليت أنا إذا ارتحلت لك الخيـــل وأنا إذا أقمت الخيام

والتى جعلت فيها الخيام فوق الأمير .

المتنبي :

لقد نسبوا الخيام إلى علاء أبيت قبوله كل الإباء
وما سلمت فوقك للثريا ولا سلمت فوقك للسماء

سيف الدولة : أحسنت يا أبا الطيب ، هل لك فى كأس من الشراب ؟

أبو الحسن : رحم الله يماك التركى ، فقد كان طوع الأمير فى مجلس شرابه ، ألست القائل ترثيه :

لأبقى يمانٍ فى حشاى صبابة إلى كل تركى النجار جليب

ابن خالويه : كف عن هذا ، ولا تذكر الأمير بخادمه المحبوب ؛

فما ماضى الشباب بمسترد ولا يوم يمر بمستعاد

سيف الدولة : يا أبا الطيب ، ألا يذكرك هذا الشطرنج يوم لنا أنشدتنى فيه ؟

المتنبي : لقد كان هذا فى يوم مطير .

أبو الحسن :

ألم تر أيها الملك المرجى عجائب ما رأيت من السحاب

تشكى الأرض غيبته إليه وترشف ماءه رشف الرضاب

وأوهم أن فى الشطرنج همى وفيك تأملى ولك انتصابى

ابن خالويه : قبيح . قبيح ورب الكعبة ، « ولك انتصابى » ؟

سيف الدولة : يا أبا الطيب إستمع لما أنشد ، على أن تجيزه ارتجالا :

خرجت غداة النفر أعترض الدمى فلم أر أحلى منك فى العين والقلب

المتنبي :

فديناك أهدى الناس سهما إلى قلبى وأقتلهم للدارعين بلا حرب

تفرد بالأحكام فى أهله الهوى فأنت جميل الخلف مستحسن الكذب

وإنى لممنوع المقاتل فى الوغى وإن كنت مبذول المقاتل فى الحب

أبو الحسن : صدقت وبررت ، والله إن الشعر فى أسمى درجاته لا يلذ السمع إلا حين يتحدث عن الحب ، وإن أنس لا أنس قولك يا أبا الطيب :

وفتانة العينين قتالة الهوى إذا نفحت شيحا روائحها شبا

لها بشر الدر الذى قلدت به ولم أر بدراً قبلها قلد الشهبا

فياشوق ما أبقى ويالى من النوى ويادمع ما أجرى ويا قلب ما أصبى !

ابن خالويه : إن البيت الأخير لشاهد حسن لباب الاستغاثة ! ولكن خير من هذا الشعر قول القائل :

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ومن عهدها ألا يدوم لها عهد

وإن حقدت لم يبق فى قلبها رضا وإن رضيت لم يبق فى قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء ، وربما يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد

سيف الدولة : يابن خالويه ، إن نحوك ـ علم الله ـ ليثير علتى ، ويقلق هذا الدمل تحت إبطى ، « يمسك إبطه متوجعاً »

أبو الحسن :

بنا لابك الشكوى ، فليس بضائر إذا صح نصل السيف مالق الغمد

المتنبى :

أيدرى ما أرابك من يريب وهل ترقى إلى الفلك الخطوب
وجسمك فوق همة كل داء فقرب أقلها منه عجيب
وكيف تعلك الدنيا بشىء وأنت بعلة الدنيا طبيب

ابن خالويه « وحده » شهد الله إنه لرياء مستنكر ، ومبالغة غير محمودة .

سيف الدولة : بم تتمتم يابن خالويه ؟ أذهب النحو بالبقية من عقلك ؟

أبو الحسن : أعز الله الأمير ، مازالت به كان وأخواتها حتى ذهبت برشده .

ابن خالويه : صه . كيف تجرؤ أن تهينى فى حضرة الأمير ؟

سيف الدولة : كفى ، دعونا أنشدكم هذه الأبيات التى طالما أعجبت بها ، على أن يجيزها أبو الطيب :

سأشكر عمراً ما تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتى من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

المتنبى « يطرق قليلا ثم ينشد » :

لنا ملك لا يطعم القوم ، همه سماة لحى أو حياة لميت
ويكبر أن تقذى بشىء جفونه إذا ما رأتها خلة بك فرت
جزى الله عنى سيف دولة هاشم فإن نداه الغمر سيفى ودواتى

أبو الحسن « مصفقاً » : أجدت وأحسنت . ألا ترددهذا الذى ارتجلت فأحفظه ؟

المتنبى : لا والله حتى يأمر الأمير .

سيف الدولة : أنشد يا أبا الطيب ، « المتنبي يردد الأبيات وابن خالويه يسد أذنيه بيديه »

أبو الحسن : هذا هو الذي في أذنيه وقر ، فلا يتذوق جمال الشعر .

ابن خالويه « متحديا المتنبي » : غداً العيد فما أعددت لتقول في الأمير ؟

أبو الحسن : إن قصائد أبي الطيب في تهنئة الأمير بالعيد مشهورة .

المتنبي :

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده وعيد لمن سمى وضحى وعيدا

« يسمع من الخارج صوت المؤذن فيضع سيف الدولة الكأس جانبا ، ثم يكبر الجميع مع المؤذن »

المتنبي :

ألا أذن فما أذكرت ناسي ولا ليلت قلباً وهو قاسي

ولا شغل الأمير عن المعالي ولا عن حق خالقه بكاس

ابن خالويه : أدام الله حياة الأمير ، إن الوقت ليمضي سريعاً في حضرته . أهذه هي العشاء ؟

أبو الحسن : والله يا مولاي لو كنت أميرا لأجزلت لأبي الطيب مثل هباتك له ، فقد علمني الحب إذ يقول :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا

مظلومة القد في تشبيهه غصناً مظلومة الريق في تشبيهه ضرباً

بيضاء تطمع فيما تحت حلتها وعز ذلك مطلوبا إذا طلبا

ابن خالويه : « مستنكراً » « تطمع فيما تحت حلتها » ؟ ويقال هذا في حضرة الأمير ؟ ثم ما معنى قولك « علمني الحب » وهل الحب يعلم ؟

سيف الدولة : ليست كل القلوب أهلا للحب ، فمنها الصخر الأصم ، ومنها الرقيق الحساس :

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

إن القتيل مضرجاً بدموعه مثل القتيل مضرجاً بدمائه

أبو الحسن : أصغ إلى هذا القول يابن خالويه ، فربما ألان من قلبك : أرقٌ على أرق .

المتنبي « متمما » : ومثلي يأرق

أبو الحسن : وجوى يزيد وعبرة تترقرق

جهد الصبابة أن تكون كما أرى : عين مسهدة وقلب يخفق

ما لاح برق أو ترنم طائر إلا انثنيت ولي فؤاد شيق

جربت من نار الهوى ما تنطفي نار الغضى وتكل عما تحرق

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

المتنبي :

والله لو كنت الأمير لأعطيتك أنت هذه المنح ، يا أبا الحسن، إنك لتحفظ من شعري أكثر مما أحفظ أنا .

سيف الدولة : « كأنما تذكر أمراً خطيراً — واقفاً »

أيها القوم ، أفتوني في أمر بني كلاب . ما زالوا يشنون الغارة ، ويفسدون عليّ أمر الرعية .

أبو الحسن « دهشاً » : أما ارعووا بعد أن أدبتهم في المرة الأولى !

تهاب سيوف الهند وهي حدائد فكيف إذا كانت نزارية عربا

ويرهب ناب الليث والليث وحده فكيف إذا كان الليوث له صحبا

ويخشى عباب البحر وهو مكانه فكيف بمن يغشى البلاد إذا عبا

« المتنبي يطرق مفكراً »

ابن خالويه « متهكما » : المتنبي يستوحي بنات شعره ليصد عنا .

سيف الدولة : كفى يا بن خالويه ، فيم تفكر يا أبا الطيب ؟

المتنبي « منشداً » :

بغيرك راعياً عبث الذئاب وغيرك صارماً ثلم الضراب

وتملك أنفس الثقلين طرا فكيف تحوز أنفسها كلاب

وما تركوك معصية ولكن يعاف الورد والموت الشراب

طلبتهمو على الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحاب

أبو الحسن : ما أعذب وما أجمل !

ابن خالويه ، متهكما ، : وما أحلى !

سيف الدولة : أجز هذه الأبيات يا أبا الحسن ،

أبو الحسن :

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب
وإنهمو عبيدك حيث كانوا إذا تدعو لحادثة أجابوا
وعين المخطئين همو وليسوا بأول معشر خطئوا فتابوا

المتنبي :

وأنت حياتهم غضبت عليهم وهجر حياتهم لهمو عقاب

سيف الدولة : أجدتما وأحسنتما ، فماذا ترى يابن خالويه ؟

ابن خالويه :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

أعز الله الأمير ، ليس عدلا أن يعاقب القوم كلهم .

سيف الدولة : والله لو منعوني درهماً لقاتلتهم عليه .

المتنبي :

ولو غير الأمير غزا كلابا ثناه عن شموسهمو الضباب
ولكن ربهم أسرى إليهم فما نفع الوقوف ولا الذهاب

أبو الحسن : فمشاهم وبسطهم حرير

سيف الدولة : ، متمما بحدة ، : وصبحهم وبسطهم تراب

والله لأعلمن القوم كيف يرتدعون عن غيهم ، يا غلام دع المغنى يغنى قبل أن تدور رحى الحرب ، يسمع صوت المغنى مطرباً الأمير ومن بحضرته ،

المتنبي :

ماذا يقول الذى يغنى يا خير من تحت ذى السماء
شغلت قلبي بلحظ عيني إليك عن حسن ذا الغناء

سيف الدولة : أعلى البديهة تقول هذا ؟

أبو الحسن : ليس هذا بكثير على شاعر الأمير .

ابن خالويه : أعز الله مولاى الأمير ، والله لقد ضقت ذرعا بهذا المتشاعر ، وإن غروره قد جاوز الحد ، إن الرجل يبغى حولا وسلطاناً كالذى للأمير .

أبو الحسن : هذه الكلمة يراد بها باطل ، أعز الله مولاى الأمير ، لخير لك أن يكون شاعرك عالى الهمة من أن يكون ذليلها وهو الذى يقول فيك :

بلغت بسيف الدولة النور رتبة ملكت بها ما بين شرق ومغرب

سيف الدولة « غاضباً » :

أراك قد أسرفت يا أبا الطيب فى مديح نفسك ، فلم تعتذر عن هذا ؟ أجب المتنبى :

ألا ما لسيف الدولة اليوم عاتبـــاً فداه الورى أمضى السيوف مضارباً

حنانيك مسئولا وليك داعيـــاً وحسبى موهوباً ، وحسبك واهبـــاً

أبو الحسن : رعاك الله ! لا تسمع لقول الوشاة ، فلست أحسب الأمير قد نسى قول المتنبى فيه :

وبمهجتى يا عاذلى الملك الذى أسخطت كل الناس فى إرضائه

إن كان قد ملك القلوب فإنه ملك الزمان بأرضه وسمائه

الشمس من حساده والنصر من قرنائه ، والسيف من أسمـــائه

ابن خالويه ، أصلح الله الأمير ، لقد أدخل هذا الرجل على الشعر ما أفسده ، ولعل الأمير يذكر ذلك الهذيان الذى سماه شعراً فى قصيدته التى مطلعها :

ما أنصف القوم ضبة وأمـــه الطرطبة

سيف الدولة « يزداد غضبه » :

أتقرن غيرى بى فى المديح يا أبا الطيب ؟

المتنبى :

وظنونى مدحتهمو قديماً وأنت بما مدحتهم مرادى

أبو الحسن : لله درك حين تقول :

أنا ترب الندى ، ورب القوافى وسمام العـــدا ، وغيظ الحسود

ابن خالويه : أنا لست بحسود ، وإنما أنا أديب يعرف للشعر قدره

المتنبي : اتق الله يابن خالويه

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيده الضرغام فيما تصيـــدا

صدق من قال : إذا لم تستح فاصنع ما شئت

فى الناس أمثلة تدور : حياتها كلماتها ، وبمـــانها كحياتها

أبو الحسن :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

سيف الدولة : أسرقنا فى ذم ابن خالويه والتعريض به .

ابن خالويه ، معرضاً بالمتنبي ، :

تخفى العداوة وهى غير خفية نظر العدو بمـــا أسر يبوح

، مخاطباً سيف الدولة ، :

فلا تغررك ألسنة موال تقلبهن أفئـــدة أعادى

المتنبي :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنت الذى صيرتهم لى حسداً

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

أجزنى إذا أنشدت شعراً ، فإنمـا بشعرى أتاك المادحون مردداً

أبو الحسن : من أجل ما أحفظه لك يا أبا الطيب قولك :

وإذا خفيت على الغبي فعاذر ألا ترانى مقلة عميـــاء

المتنبي : أطال الله بقاء الأمير . لقد خلقت فينا الشجاعة . وكنت لنا المثل فى ميدان القتال .

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمـــة ووجهك وضاح وثغرك باسم

سيف الدولة : أما قلت :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك فى جفن الردى وهو نائم

المتنبى : أعز الله الأمير ، إنى حين ذكرت الموت فى أول بيت أتبعته بذكر الردى ليجانسه ، ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : ووجهك وضاح ، لأجمع بين الأضداد

سيف الدولة : أحسنت وأجدت ، « يناوله عطية » إنى لأطرب لشعرك يا أبا الطيب ، أنشدنى !

المتنبى :

رأيتك فى الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم فى محال
فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ابن خالويه : هذا الشعر فيه عيب فى الصنعة ، قولك « مستقيم فى محال » والمحال ليس من ضده الاستقامة ، وإنما ضدها الاعوجاج ،

أبو الحسن « متهكما » : هب القصيدة جيمية فكيف تروى البيت الثانى ؟

ابن خالويه :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن البيض بعض دم الدجاج

« الجميع يضحكون »

المتنبى : حسن مع هذه السرعة ، إلا أنه يصلح أن يباع فى سوق الطير ، لا مما يمدح به مثل الأمير .

ابن خالويه « محتداً » : أتهزأ بى يا شيطان !

المتنبى :

ومن يك ذا فم مُر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

ابن خالويه : اسكت وإلا . . ! « مهدداً بمفتاح فى يده »

المتنبى : اسكت ويحك ، ما لك وللعربية ، إنك أعجمى !

« ابن خالويه يضربه بالمفتاح »

« المتنبى يحاول الإمساك بتلابيبه فيصيح به سيف الدولة »

سيف الدولة : « بعد هدوء العاصفة » :

لقد انتصف لنفسه

المتنبي : لا بد من رحيلي . ثم ينشد :

يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألم

« ينزل الستار »

(لندن)

ابراهيم أنيس
عضو بعثة المجمع اللغوى